المعارك الفاصلة في العصر الحديث والمعاصر

ديو البحرية ١٥٠٩ م :

معركة ديوالبحرية هي إحدى المعارك البحرية المهمة التي خاضتها البحرية المصرية عبر العصور المختلفة، وكانت ضد أحد أساطيل البرتغال بالقرب من جزيرة ديو في المحيط الهندي، وقد وقعت هذه المعركة زمن السلطان المملوكي قنصوه الغوري في عام ١٥٠٩م، ويبدو أنها كانت بسبب تراكم الخلافات بين دولة المماليك في مصر والشام من ناحية، ومن الناحية الأخرى دولة البرتغال التي كان لها تحركات عدائية واستعمارية ضد الأراضي الإسلامية في الشرق .

فقد نجح البرتغاليون في السيطرة على معابر التجارة في الساحل الإفريقي والخليج العربي وبحر العرب، ومنعوا وصول المنتجات الشرقية إلى أوروبا، وساعدهم على تحقيق ذلك عدم

وجود منافس بحري قوي لهم، وارتكبوا العديد من المذابح وقاموا بأعمال الحرق والترويع والقتل في المناطق التي سيطروا عليها، بل ووصل الأمر إلى حد الاعتداء على حرمات الناس ومنع المسلمين من الذهاب إلى الحج وهدم المساجد عليهم .

كانت دولة المماليك في هذا الوقت مشغولة بأزماتها السياسية والاقتصادية الداخلية، ولهذا فقد واجه السكان في الساحل الإفريقي والخليج العربي واليمن مصيرهم بأنفسهم، وعملوا على مقاومة البرتغاليين ومهاجمة حامياتهم المنتشرة في كل مكان، إلا أن هذه المقاومة لم تنجح بسبب الفروقات الواضحة في موازين القوة .

على أي حال، ورغم ما تعانيه دولة المماليك من أزمات داخلية طاحنة، إلا أن المماليك في مصر شعروا بالمسئولية تجاه الأمة الاسلامية، وبذلوا ما في استطاعتهم للحد من وصول البرتغاليين إلى الأماكن المقدسة في الحجاز التي طالما هدد البرتغاليون بالوصول اليها .

أمر السلطان المملوكي قنصوه الغوري بإرسال حملة بحرية مكونة من ثلاث عشر سفينة، عليها ألف وخمسمائة رجل بقيادة حسين الكردي، الذي وصل إلى جزيرة ديو ثم إلى جزيرة شول والتقى مع الأسطول البرتغالي بقيادة الونز دي الميدا في عام ١٥٠٨م فكان النصر حليفه، ثم إن البرتغال عززوا قواتهم وأعادوا الكرة مرة

أخرى مما أدى إلى هزيمة الأسطول الاسلامي في ١٥٠٩م في معركة ديو المشهورة في التاريخ . [١٥]

تأثرت دولة المماليك في مصر كثيرا بالهزيمة في ديو البحرية، فبالاضافة إلى الهزيمة العسكرية والخسائر المادية، فقد فقدت مصر أهم مايميزها في تلك الفترة، ألا وهو السيطرة على الطرق التجارية، وانتهت السيطرة على الطرق التجارية بين الشرق وأوروبا إلى أيدي البرتغاليين، في الوقت الذي لم تكن تمتلك فيه مصر القوة الكافية لاستعادة هذه السيطرة .

ترتب على ذلك حدوث إنهيار اقتصادي شديد لدولة المماليك، صحبه تدهورا في قدرتها العسكرية، الأمر الذي بات يؤكد على أن هذه الدولة التي كانت تسيطر على معظم العالم الإسلامي في العصور الوسطى قد آن أوانها للأفول والانتهاء، وهو ما سيتضح في المعارك التي سنتحدث عنها .

مرج دابق ١٥١٦م ـ الريدانية ١٥١٧ م :

مرج دابق والريدانية معركتان منفصلتان متصلتان، منفصلتان من حيث المكان، متصلتان من حيث النتائج والأحداث والأطراف، فكلا المعركتين قد وقعتا بين العثمانيين والمماليك، أما مرج دابق فوقعت في الشام، بينما وقعت الريدانية في صحراء

١٥ - (د. علي محمد الصلابي - الدولة العثمانية - ص٢٢٥)

العباسية في مصر، وهما معركتان فاصلتان في تاريخ مصر والعالم الإسلامي حيث ترتب عليهما انتهاء دولة المماليك في مصر والشام وفتح الطريق أمام السلطان سليم الأول العثماني للسيطرة على العالم الإسلامي قاطبةً وإعلان نفسه الحامي الوحيد للحرمين الشريفين ولجميع رعاياه في العالم الإسلامي .

كانت العلاقات طيبة ووطيدة بين الدولة العثمانية في الأناضول (تركيا الحالية)، ودولة المماليك في مصر والشام، وقد اتضح ذلك في عدة مواقف منها الاحتفالات التي أقامها المماليك في مصر فرحا بفتح العثمانيون للقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية على يد السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه عام ١٤٥٣م، وكذلك في المساعدات التي قدَّمها العثمانيون للمماليك أثناء صراعهم مع البرتغاليين .

ويبدو أن العلاقات قد ساءت بين الدولتين بعد وصول السلطان سليم الأول إلى حكم الدولة العثمانية لعدة أسباب منها وقوف السلطان قنصوه الغوري سلطان المماليك مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم الأول العثماني وعلى رأسهم الأمير أحمد أخو السلطان سليم الأول .

من أسباب توتر العلاقات كذلك كان الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه الصفوي اسماعيل، وعدم التزامها الحياد بين العثمانيين والصفويين في الحروب الدائرة بينهما .

كما أجج هذا العـــداء، وقوع بعض الخلافـــات على الحدود بين الدولتين في طرســـوس شمال الشـــام، حيـــث تناثرت في هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت في ولائها بين الدولتين العثمانية والمملوكية، فكان هـــذا التأرجح مبعث اضطراب في العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مســـتمر .

أما عن السبب المباشـــر الذي شجع السلطان سليم الأول على الإقدام على هذه الخطوة، فكان ما ذكره الدكتور علي الصلابي في كتابه (الدولة العثمانية عوامل النهوض وأســـباب السقوط) من تفشـــي ظلم المماليك بين الناس ورغبة أهل الشـــام وعلماء مصـــر في التخلص من الدولة المملوكيـــة والانضمام إلى الدولة العثمانية، ونقل عن الدكتور محمد حرب ترجمة وثيقة موجودة في الأرشـــيف العثماني في متحف طوب كابي في أستانبول برقم (١١٦٣٤)(٢٦)، وبين أن ترجمـــة الوثيقة من العثمانية إلى العربية كما يلي :

«يقدم جميع أهل حلب : علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهال، بدون استثناء طاعتهم وولائهم - طواعية - لمولانا السلطان عز نصره - وبإذنهم جميعاً، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية، أن جميـــع أهل حلب هم الموالون لكم، يطلبون من حضرة الســـلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واســـتقبالكم بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب،

خلِّصنا أيها السلطان من يد الحكم الشركسي، احمنا أيضا من يد الكفار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان أن الشريعة الإسلامية لا تأخذ مجراها هنا وهي معطلة، وأن المماليك إذا أعجبهم أي شئ ليس لهم يستولون عليه، سواء كان هذا الشئ مالا أو نساء أو عيالا، فالرحمة لا تأخذهم بأحد، وكل منهم ظالم، وطلبوا منا رجلا من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم فأظهروا لنا العداء، وتحكموا فينا، ونريد قبل أن يذهب التركمان أن يَقدم علينا وزير من عندكم أيها السلطان صاحب الدولة مفوض بمنح الأمان لنا ولأهلينا ولعيالنا، أرسلوا لنا رجلا حائزا على ثقتكم، يأتي سرا ويلتقي بنا ويعطينا عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين»

كما نقل عن عبد الله بن رضوان في كتابه (تاريخ مصر) (مخطوط رقم ٤٩٧١) بمكتبة بايزيد في استانبول، أن علماء مصر وهم نفس الشعب المصري وممثلوه يلتقون سرا بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه شكواهم الشريف، ويستنهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتي ويأخذ مصر، لقد كان علماء مصر يراسلون السلطان سليم الأول لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه ليستولي عليها ويطرد منها الجراكسة المماليك .

على أي حال يبدو أن أهل مصر والشام قد كرهوا حكم المماليك في أواخر عصرهم، فلم يعد المماليك تلك الدولة العادلة المجاهدة كما كانت زمن قطز وبيبرس، وتفشى الظلم وغابت العدالة

الاجتماعية، فتطلع أهل مصر والشـــام للخـــلاص منهم، وكان العثمانيون هم القوة الاسلامية الوحيدة القادرة على ذلك حينها .

اندفعت القوتان العثمانية والمملوكية في تســـابق ليكون أيهما صاحب الضربة الأولى والمفاجئة، ودارت أولا معركة مرج دابق في الشـــام والتي لم تستغرق إلا سويعات قليلة، وحقق فيها العثمانيون نصرا كبيرا على المماليك، وقتل الســـلطان قنصوه الغوري أثناء انســـحاب قوات المماليك من المعركة، ويقـــال أنه وقع من على فرســـه ودهس تحت أقدام خيل جنده، وبهذا دانت الشـــام بالولاء للسلطان سليم الأول العثماني، ودخل مدنها واحدة تلو الأخرى و أرسل إلى طومان باي نائب السلطان الغوري القتيل في مصر وطلب منه أن يلتزم الطاعة للدولة العثمانية، إلا أن طومان باي ســـخر من رسول العثمانيين وأمر بقتله .

قرر السلطان ســـليم الأول الحرب والتحرك نحو مصر قاطعا صحراء فلســـطين وســـيناء، في الوقت الذي ظـــن طومان باي أن العثمانيين لن يتقدموا إليه وأن الصحراء الشاســـعة التي تفصل بينه وبينهم ستكون حائلا أمام القوات العثمانية، إلا أن القدر ساعد العثمانيون، وهطلت الأمطار الـــتي مهدت رمال الصحراء لخيول العثمانيين حتى وصلت إلى صحراء العباسية المعروفة بالريدانية، ودارت معركة جديدة بين المماليـــك والعثمانيين انتهت بهزيمة المماليـــك هزيمة ســـاحقة، ويكفي أن المماليك كانـــوا مازالوا يعتمدون على أســـاليب الحرب التقليدية وعلى سلاح الفروسية،

في الوقت الذي كان فيه جيش العثمانيين أكثر عددا وأحدث تسليحا وأوضح تنظيما وكان لفرق المشاة والمدفعية العثمانية دورا كبيرا في تحقيق الانتصار .

على أي حال، ترتب على هزيمة المماليك في مرج دابق ثم الريدانية على الترتيب، انتهاء دولتهم في مصر والشام، وسيطر سليم الأول على العالم العربي في جناحيه الأسيوي والإفريقي، وأعلن نفسه الحامي الوحيد للحرمين الشريفين ولجميع رعاياه في العالم الإسلامي، ودخلت مصر حِقبة تاريخية جديدة وهي أنها أصبحت ولاية عثمانية .

شبراخيت ١٧٩٨م ـ امبابة ١٧٩٨م :

أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة العثمانية كما ذكرنا منذ عام ١٥١٧م بعد هزيمة القوات المملوكية في معركة الريدانية، ولكن من سنن الدول أن تصاب بالضعف والتدهور إلى أن يتم زوالها ويحل محلها دولا جديدة، تسير على نفس خطواتها من حيث التأسيس ثم القوة والتوسع إلى أن يأتي دورها في الضعف والانهيار، وعلى هذا فقد أصيبت الدولة العثمانية بحالة من الضعف منذ القرن السابع عشر الميلادي، وهو ما جعل أنظار التنافس الاستعماري الإنجليزي الفرنسي تتجه إلى ولاياتها خاصة البعيدة عنها كمصر .

في ١٧٩٨م وصلت الحملة الفرنسية التي يقودها نابليون بونابرت إلى مصـــر وكانت الدولة العثمانية حينها لا تملك من القوة ما يمكنها مـــن الدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنســـية، لذا لجأت إلى إقامة عدة تحالفات مع أعداء فرنسا الأوروبيون مثل الإنجليز والروس حتى تتمكن من إخراج الحملة من مصر، ورغم أنها نجحت في تحقيق ذلك بمســـاعدة حلفائها، إلا أن الحملة الفرنسية قد تركت في مصر أثارا بعيدة المدى والتأثير .

وقد دارت عدة معارك أثناء وجود الحملة الفرنســـية في مصر لعل أشهرها معركتي شـــبراخيت ثم امبابة على الترتيب الزمني، وكانت الأطراف في المعركتين واحدة إلى حد ما، ففي شبراخيت كانت فرق المماليك بقيادة مـــراد بك تحاول التصدي للحملة الفرنســـية بقيادة نابليون بونابرت، أمـــا في معركة امبابة فكانت نفس الأطراف بالإضافة إلى اشـــتراك إبراهيم بك المملوكي إلى جوار مراد بك ضد الفرنسيين .

لما وصلت القوات الفرنسية إلى الإسكندرية لم تجد أي مقاومة عســـكرية تذكـــر، اللهم إلا مقاومـــة الأهالـــي بزعامة حاكم الإســـكندرية السيد محمد كريم، وبعد ســـيطرة الفرنسيين على الإســـكندرية، تقدمت قوات الحملة في طريقهـــا قاصدة القاهرة، ووقع أول لقاء عســـكري بين المماليك والفرنسيين عند شبراخيت قرب البحيرة، وكان لقلة عدد المماليك وضعف تســـليحهم وعدم قدرتهـــم على التنظيم دورا كبيرا في هزيمتهم في شـــبراخيت .

ترتب على الهزيمة في شبراخيت تقهقر القوات المملوكية بقيادة مراد بك صوب القاهرة للدفاع عنها، ورابط عند إمبابة، وفي تلك الأثناء انضمت إليه قوات جديدة بقيادة مملوك أخر هو إبراهيم بك، ولنفس الأسباب سالفة الذكر، تمت هزيمة المماليك مرة جديدة أمام الحملة الفرنسية، وترتب على هزيمتهم في إمبابة، فرار مراد بك إلى الصعيد ولكنه تزعم المقاومة في الصعيد ضد الفرنسيين لفترة، أما عن إبراهيم بك فقد حدثت مناوشات بينه وبين الفرنسيين عند الصالحية ثم هرب ومعه الوالي العثماني إلى الشام، وعلى هذا، وبعد هزيمة المماليك في إمبابة أصبحت القاهرة بدون أي حماية أو قوة عسكرية تدافع عنها، ودخل نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية إلى القاهرة معلنا سيطرته عليها .

حروب محمد علي ١٨٠٥م : ١٨٤٨م :

يُعد محمد علي أحد أهم حكام مصر عبر تاريخها الممتد لأكثر من سبعة آلاف سنة، لما كان له من أعمال أثرت في تاريخ مصر بل والعالم بأسره، ولسنا في مجال عرض أعمال محمد علي في المجالات المختلفة، وإنما سنوجز أهم المعارك التي دارت في عصره .

وقد تولى محمد علي حكم مصر كوالي عثماني عام ١٨٠٥م بعد ثورة للشعب المصري ضد الولاة العثمانيين وأمراء المماليك الذين أثقلوا كاهل المصريين بالضرائب، وتم اختياره بإرادة شعبية

كاملة بواسطة زعماء الشعب المصري في يوم ١٣مايو عام ١٨٠٥م، إلا أن فرمان السلطان العثماني بولاية محمد علي على مصر لم يصدر إلا في يوليو ١٨٠٥م، ويبدو أن السلطان العثماني لم يكن يرغب في تولية محمد علي مصر، إلا أنه اضطر إلى ذلك بعد الضغط الشعبي عليه .

لما تولى محمد علي حكم مصر، تعرض لمحاولات عديدة لعزله من الحكم، كان أبرزها حملة فريزر الإنجليزية عام ١٨٠٧م، إلا أن محمد علي تخلص منها جميعا بفضل مساندة الشعب وزعمائه له، أما عن المعارك التي خاضها محمد علي فيمكن تقسيمها إلى قسمين : الأول وهي الحروب التي خاضها محمد علي بالجيش المصري بأمر من السلطان العثماني بموجب أن محمد علي واليا عثمانيا على مصر، أما القسم الثاني فهي الحروب التي خاضها محمد علي بناء على رغبته الشخصية ولتدعيم استقلاله بمصر ومنها ما كان ضد الدولة العثمانية نفسها، وسنلخص أهم الحروب التي خاضها محمد علي فيما يلي :

١ـ حملة فريزر ١٨٠٧م :

تعددت المحاولات الانجليزية لعزل محمد علي عن ولاية مصر لأن انجلترا رأت أن وجود محمد علي في ولاية مصر يهدد مصالحها في المنطقة كلها، وانتهزت انجلترا تدهور العلاقات بينها وبين

السلطان العثماني بسبب انحيازه إلى فرنسا، واتفقت مع روسيا على ضرب الدولة العثمانية في مصر واحتلال مصر وعزل محمد علي وتنصيب محمد بك الألفي تابعها المملوكي بدلا منه، فأرسلت حملة بقيادة فريزر في مارس ١٨٠٧م .

نزلت الحملة إلى الاسكندرية واستولت عليها ثم توجهت إلى رشيد، وكان محمد علي في الصعيد يطارد بعض المماليك المتمردين عليه، فوقع عبء مقاومة الحملة على أهالي رشيد والحماد الذين قاوموا الحملة ببسالة عظيمة في شوارع رشيد والحماد وقتلوا الكثير من جنود الحملة وأسروا منهم عددا كبيرا .

أمام هذه المقاومة الباسلة من المصريين في رشيد والحماد، اضطر فريزر إلى التقهقر إلى الإسكندرية للاحتماء بها، وكان محمد علي قد علم بأمر الحملة وجاء مسرعا من الصعيد، وقام بحصار الإنجليز في الإسكندرية .

وبفضل المقاومة المصرية، ووقوع عدد كبير من القوات الانجليزية قتيل أو أسير، طلب فريزر الصلح والجلاء عن الإسكندرية مقابل الإفراج عن الأسرى، وقد وافق محمد علي على طلب فريزر، ودخل محمد علي الإسكندرية ظافرا جانيا لثمار نصر لم يحرزه، ولكن كان البطل الحقيقي لهذا الانتصار هو الأهالي في رشيد والحماد الذين صمدوا في وجه الحملة .

٢ـ الحروب الوهابية (الجزيرة العربية) ١٨١١م : ١٨١٩م :

كانت الحـــروب الوهابية في الجزيرة العربية هي أولى الحروب للجيش المصـــري الذي كونه محمد علي خارج الأراضي المصرية، وكانت بأمر من الســـلطان العثماني للقضاء على حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب، والتي كانت تُهدد نفوذ الدولة العثمانية في شـــبه الجزيرة العربية، فبالرغم من أن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب كانت دعوة دينية في بدايتها لا علاقة لها بأمور السياسة، إلا أنه انحاز إلى آل ســـعود الساعين إلى تكوين دولة خاصة بهم في الجزيرة العربية، مما يهدد النفوذ العثماني صاحب الســـيادة على هذه الأراضي حينذاك، فأعطى الســـلطان أوامره إلى محمد علي بإرسال الحملات إلى الجزيرة العربية للقضاء على هذه الحركة، وكانت أولها الحملة التي أرســـلها بقيادة ابنه طوسون، وقد نجح محمد علي في تحقيق مطالب السلطان العثماني، ولم يفوت محمد علي هذه الفرصة، فقد حقق لنفســـه العديد من المكاســـب منها أنـــه ومن خلال تحقيق الانتصـــارات في الجزيرة العربية قد وطد مركزه في مصر، وارتفع قدر محمد علي من حاكم تابع للسلطان إلى حاكم مســـتقل، كما أصبح لمصر وجودا سياسيا وعسكريا في شبه الجزيرة العربية حيث أسند السلطان إلى محمد علي مشيخة الحرم المكي ولابنه إبراهيم ولاية جدة .

وقد استغل محمد علي فرصة وجود الجيش المصري في شبه الجزيرة العربية وتوسع في الحجاز ليشمل نجد وعسير وجزء من اليمن ومن الخليج العربي، مما كان له أثر كبير في ظهور فكرة تكوين رابطة عربية يقودها محمد علي تقف في مواجهة الرابطة العثمانية في قادم الأيام، ويستطيع محمد علي أن يستند إليها ويعطي لنفسه شرعية الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال بمصر وما حولها .

٣ـ حروب السودان ١٨٢٠م : ١٨٢٢م:

تعتبر حرب السودان أو فتح السودان أول حرب يخوضها محمد علي بإرادته الشخصية، وكانت أسبابها كافية ومقنعة لمحمد علي لخوضها، ففتح السودان يمكنه من ملاحقة المماليك الفارين من المذبحة التي أقامها لهم إلى دنقلة في السودان، ويجعله يسيطر على أراضي السودان الغنية بمناجم الذهب والماس وينمي التجارة مع السودان، بل وسيتمكن من تجنيد السودانيين في الجيش المصري، كما أننا لا نستطيع أن نغفل أهمية السودان للمجال الحيوي المصري، فالسودان امتدادا طبيعيا لمصر من ناحية الجنوب .

تمكن محمد علي من تحقيق غرضه من السودان، وعمل على تنظيم الحكم والإدارة بها فعين عليها حاكما عاما برتبة حكمدار، كما قسّم السودان إداريا إلى مديريات وأقسام على نفس

الأسلوب المتبع في مصر، وقام ببناء عدة مدن جديدة مثل الخرطوم العاصمة وفامكه وكسلا، كما أن فتح السودان مكّن محمد علي من اكتشـــاف منابع النيل وأواسط أفريقيا .

٤ـ حروب اليونان (المورة) ١٨٢١م : ١٨٢٨م :

كانت حروب اليونان بأمر من السلطان العثماني، حيث كانت بلاد اليونان وأوروبا الشرقية جزءاً من الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الخامس عشـــر الميلادي، وقد تطلع اليونانيين في جزر المورة إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وإعلان اســـتقلالهم، وقد لقوا معاونة كبـــيرة من العديد من الدول الأوروبية التي كانت ترغب في تفتيت الدولة العثمانية .

علـــى أي حال، خاض محمـــد علي حروب اليونـــان بناء على أمر الســـلطان العثماني، ومتطلعا إلى تحقيق المزيد من المكاسب الشـــخصية له، وحقق محمد علي عدة انتصارات في البداية إلا أن الدول الأوروبية تحالفت ضده وســـاعدت ثـــوار المورة، وظهر ذلك جليا في معركة نوارين (نفارين) البحرية عام ١٨٢٧م والتي تحطم فيها أسطول محمد علي .

أدرك محمد علـــي أنه مهزوم أمام الـــدول الأوروبية لا محالة، فانتهز فرصة طلب الدول الأوروبية للتفاوض معه وقبل المفاوضات التي انتهت بموافقتهم على إتمام محمد علي انســـحاب قواته من

اليونان، ورغم ذلك فقد حقق محمد علي من حروب اليونان مكاسب عديدة جعلت كثير من المؤرِّخين يذهب إلى أن النتائج النهائية للحرب كانت في صالح محمد علي، حيث حصل محمد علي على جزيرة كريت كمكافأة من السلطان العثماني على مجهوداته وضمها إلى ولاية مصر، كما أن الجيش المصري اكتسب خبرات ميدانية كبيرة، والأهم من ذلك النتائج السياسية التي رفعت من مكانة مصر الدولية، فتفاوض الدول الأوروبية بشكل مباشر مع محمد علي دون الرجوع إلى السلطان العثماني رفع من مكانة مصر الدولية، وجعل محمد علي يفكر بشكل كبير في الانفصال عن الدولة العثمانية، مما سيؤدي إلى توتر العلاقة بين محمد علي والسلطان العثماني في قادم الأحداث .

٥- حروب الشام ١٨٣١م : ١٨٤٠م :

الدارس لتاريخ مصر والعالم الإسلامي، يعي أهمية الشام لمصر عبر العصور، فهي تمثل البوابة الشمالية الشرقية لمصر، ومعظم الغزوات أتت إلى مصر عبرها، وقد فَطِن محمد علي إلى تلك النقاط وزاد عليها أن الشام إذا توحد مع مصر بالإضافة إلى الجزيرة العربية سيكون محمد علي قد حقق الرابطة العربية التي تستطيع مواجهة الرابطة العثمانية ومنافستها بكل قوة .

تعددت محاولات محمد علي لحكم الشـــام، وكانت في بدايتها محاولات دبلوماسية منها أنه فكر في عام ١٨١٠م مخاطبة السلطان العثماني لكي يتنازل له عن الشـــام مقابـــل مبلغ من المال، إلا أن الفكرة لم تتم، وعاودت الفكرة محمد علي أثناء الحروب الوهابية، وطلب من الســـلطان أن يسند إليه حكم الشام بدعوى أهميتها في إخضاع الوهابيين ولكن السلطان رفض .

تجددت مطالب محمد علي للســـلطان باسناد ولاية الشام إليه أثناء حروب اليونان بحجة تعويض خســـائره في هذه الحرب إلا أن السلطان كان قد منحه حكم جزيرة كريت .

فلـــم يعد أمام محمد علي إذا أراد حكم الشـــام إلا الحرب ضد الدولة العثمانية وخاصة بعد اســـتيلاء محمد علي على الجزيرة العربية والســـودان ورغبته في إتمام الوحدة العربية بضم الشـــام، فســـوريا تقوي الجبهـــة العربية وتمثل المجال الحيوي الشـــمالي الشرقي لمصر .

في أكتوبـــر ١٨٣١م أعلـــن محمد علي الزحـــف إلى الأراضي الشـــامية بحجة إرجـــاع الفلاحين المصريين الهاربين إلى الشـــام تخلصا مـــن الضرائب والخدمة العســـكرية، و أن والي عكا رفض الاســـتجابة لمطالب محمد علي باعادة هؤلاء الفلاحين باعتبارهم رعايـــا عثمانيين يحق لهـــم الاســـتقرار في أي أرض تابعة للدولة العثمانية .

نجحت القوات المصرية في تحقيق عدد من الانتصارات ضد القوات العثمانية، ودخلت عكا ودمشق وحمص، بل وتخطت القوات المصرية الشام ودخلت إلى أراضي الأناضول، وتمركزت في أدنة، ويبدو أن محمد علي كان يخطط للزحف إلى الأستانة .

أثارت انتصارات محمد علي على القوات العثمانية، الدول الأوروبية الكبرى، والتي رأت أن محمد علي أصبح يمثل خطرا على التوازن الدولي، فقد أدركت الدول الأوروبية أن محمد علي إذا استمر في تحقيق انتصاراته وحل محل الدولة العثمانية يؤدي ذلك إلى اختلال ميزان القوى في العالم، فاجبروا محمد علي على توقيع صلح كوتاهية ١٨٣٣م مع السلطان العثماني والذي نص على بسط نفوذ محمد علي على الشام وأدنة وتأييد سلطانه على كريت والجزيرة العربية والحجاز، وبهذا خرج محمد علي مستفيدا من تلك الحرب .

لم ينهي صلح كوتاهية الحرب تماما بين الطرفين، ويبدو وكأنه كان هدنة مؤقتة، فسرعان ما وقع السلطان العثماني اتفاقية سرية مع روسيا عرفت باسم (خنكار اسكله سي) في ١٨٣٣م وهي عبارة عن معاهدة هجومية دفاعية باطنها موجه إلى محمد علي، وعاودت القوات العثمانية الهجوم على الجيش المصري في الشام، ودارت معركة نزيب (نصيبين) ١٨٣٩م على الحدود السورية التركية شمالي حلب، إلا أن الجيش المصري حقق انتصار كاسح على القوات العثمانية لدرجة أن قائد الأسطول

العثماني قام بتسليم الأسطول كاملا إلى محمد علي دون قتال .

تدخلت الدول الأوروبية مرة جديدة ضد محمد علي، وأجبرته على قبول تسوية جديدة عرفت بمعاهدة لندن ١٨٤٠م، والتي كان من نصوصها خضوع محمد علي للسلطان العثماني، وإعادة الشام والجزيرة العربية للسلطان العثماني، واضطر محمد علي أن يقبلها بسبب تهديد الدول الأوروبية له .

على أي حال، كانت حروب الشام آخر المعارك الفاصلة في عصر محمد علي .

حرب الحبشة ١٨٧٥م :

حدثت حروب الحبشة في عصر الخديو إسماعيل حفيد محمد علي باشا، وكان الخديو إسماعيل يتطلع إلى بسط نفوذ مصر في الجنوب والجنوب الشرقي على ساحل البحر الأحمر لتحقيق عدة أهداف، منها محاربة تجارة الرقيق المنتشرة في ذلك الوقت، والسيطرة على مياه النيل ومنابعه في الجنوب، وقد استطاع الخديو إسماعيل من خلال توسعاته من بسط السيطرة المصرية على فاشودة ومصوع وسواكن وإقليم خط الاستواء وأوغندا وإقليم بحر الغزال ودارفور وإقليم البوغوس وزيلع وبربرة وهرر وسواحل الصومال الشمالية حتى كسمايو .

وقد أدت توسعات إسماعيل إلى مواجهة حتمية وأكيدة مع الحبشة، وقام الخديو اسماعيل بفرض الحصار على الحبشة عام ١٨٧٥م ودخل معها في حرب شرسة انتهت بهزيمة القوات المصرية بالاضافة إلى خسائر اقتصادية وصلت إلى ثلاثة ملايين جنيه، وهو مبلغ ضخم من المال حينذاك، خاصة وأن مصر كانت تعاني في عصر الخديو إسماعيل من أزمة مالية طاحنة .

كما أثارت توسعات الخديو إسماعيل في أفريقيا الدول الإستعمارية الكبرى، والتي كانت تسعى إلى التوسع في تلك المناطق، ورأت ان إسماعيل يعيد إلى الأذهان خطر جده محمد علي، لذا عملت الدول الأوروبية على التدخل بحجة الديون التي كانت لها عند مصر، لإعاقة نمو مصر ومنع ظهور محمد علي آخر، وقد نجحت في تحقيق ذلك .

الاحتلال الانجليزي عام ١٨٨٢م:

تطلعت إنجلترا منذ العصور الوسطى إلى احتلال مصر، وتعددت محاولاتها إلا أنها فشلت كلها، حتى جاء عام ١٨٨٢م واستطاعت تحقيق هدفها الأول باحتلال مصر وإقامة قواعد عسكرية لها في وادي النيل وسواحل البحرين الأحمر والمتوسط ؛ لتحقيق السيطرة على منطقة الشرق الأوسط، وحماية طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها في الهند والتي اعتمد عليها الاقتصاد

الإنجليزي لعشرات السنين وكانت المُغذي الأول والرئيس للخزائن الإنجليزية .

استغلت إنجلترا غرق مصر في الديون منذ عهدي سعيد باشا والخديو إسماعيل، وجعلت هذه الديون ستارا لها لتحقيق مأربها في التدخل السافر في الشئون المصرية، وما إن تحركت الحركة الوطنية في عهد الخديو توفيق اعتراضا على ماوصلت إليه الأمور من تدخل أجنبي في الشئون المصرية، إلا وكانت إنجلترا تظهر نفسها الحامية لشرعية الخديو توفيق من محاولات الإنقلاب عليه كما تزعم .

فقد تزعم العسكريون الحركة الوطنية في هذه الفترة، بزعامة الأميرالاي أحمد عرابي، ومن الجدير بالذكر أن مطالب الضباط المصريين التي تقدموا بها للخديو توفيق وحكومته كانت في بادئ الأمر مطالب فئوية متعلقة بامتيازات حرموا منها، إلا أنهم سرعان ما التحموا بالمدنيين ووحدوا مطالبهم، وهذا ما أزعج الخديو توفيق المدعوم من الإنجليز .

على أي حال، تطورت الأحداث إلى أن نزلت القوات الإنجليزية شواطئ الإسكندرية، وبدأت المقاومة ضدها والتي تمثلت في عدة معارك بين القوات المصرية الموالية لأحمد عرابي مدعومة بالمقاومة الشعبية، ضد قوات الاحتلال الإنجليزي، وكانت النتيجة النهائية لهذه المعارك في صالح قوات الاحتلال والتي تمكنت بعدها من

دخول القاهرة، إلا أن البطولات المصرية خلال هذه المعارك الفاصلة لايمكن أن نتجاوزها، وسنوجز أهم معركتين بشئ من التفصيل وهما معركة كفر الدوار، ثم معركة التل الكبير.

١ـ معركة كفر الدوار يوليو ١٨٨٢ :

في ١١يوليو ١٨٨٢م، بدأ الأسطول الإنجليزي في ضرب مدينة الإسكندرية، رغم اجتماع سفراء الدول الكبرى في الأستانة وتعهدهم بعدم تدخل أي منهم في المسألة المصرية بشكل منفرد، إلا أن المندوب البريطاني كان قد أصر على إضافة عبارة «إلا إذا حدث ما يؤدي إلى ذلك ....» ومن هنا ذهب هذا الميثاق والذي عُرف بميثاق النزاهة سدى، إذ أن بريطانيا كانت قد أعدت عدتها لضرب الاسكندرية واحتلال مصر والتدخل بشكل منفرد .

استند الإنجليز إلى أن القوات المصرية تقوم بتحصين الإسكندرية وتعتزم غلق الميناء وحصار البوارج الإنجليزية الراسية فيه، بالإضافة إلى استغلال ما وقع في الإسكندرية من شجار بين المصريين والأجانب والذي يبدو أنه كان صنيعة الإنجليز، وأدّعت أن القوات المصرية بقيادة أحمد عرابي غير قادرة على تأمين الأجانب .

على أي حال خلقت إنجلترا حالة الضرورة التي تبرر التدخل العسكري في مصر استنادا إلى عبارة «إلا إذا حدث ما يؤدي إلى ذلك ....»، وبدأت ضرب الإسكندرية، واشتعلت النيران في مباني

المدينـــة، ونزلت القوات الإنجليزية الإســـكندرية واضطرب الموقف بشـــكل عام وتم هزيمة الجيش المصري .

أعلن الإنجليز الأحكام العرفية، وحاصروا قصر الخديو توفيق بها، ويبدو أن الخديو قد نزل قصره بالإســـكندرية انتظاراً للقوات الإنجليزية التي ســـتخلصه من ثورة المصريين بقيادة أحمد عرابي كما تمنى، وقد نال ما تمناه .

كلـــف الخديو القـــوات الإنجليزية بالمحافظـــة على النظام بالإسكندرية، وبذلك فقد ربط مصيره بانتصارهم، وكان عرابي بعد هزيمة القوات المصرية في الإســـكندرية قد انسحب إلى كفر الدوار مع وحدات جيشـــه في محاولة لإقامة خـــط دفاع ثان بعد سقوط الإســـكندرية في يد الإنجليز .

عمـــل عرابي على تحصين كفر الـــدوار ليقطع الطريق على القوات الإنجليزية الساعية للوصول إلى القاهرة، وقد وصلته بعض الإمدادات البشـــرية المتمثلة في رجال وشـــباب العائلات والقبائل من كل أنحاء مصر، ونجـــح عرابي في إقامة الحواجز والمتاريس، وأحســـن توزيع قواته في كفر الدوار .

وفي نفس الوقت الذي يقوم فيـــه عرابي بتعزيز تحصيناته في كفـــر الدوار وصلته رســـالة من الخديو توفيـــق يطلب فيها من عرابـــي الكف عن الاســـتعدادات الحربية، ويأمـــره بالحضور إلى قصر رأس التين في الإســـكندرية والخضوع لأوامره وأوامر القوات

الإنجليزيـــة، إلا أن عرابي رفض طلب الخديو، بل ووجه إليه تهمة الخيانة العظمى، وطلب من الأعيان والعلماء النظر في أمر ولايته على البلاد .

بالفعل تم تشـــكيل مجلس عـــرفي لإدارة شـــئون البلاد بعيدا عن ســـلطة الخديو، وقابل الخديو هذا الأمـــر باصدار قرار بعزل عرابي مـــن وزارة الحربية لأنه لم يمتثل إلى أوامره ولم يتوقف عن التحصينات والاستعدادات الحربية في كفر الدوار، إلا أن المجلس العرفي قرر بقاء عرابي في منصبه، وترتب على ذلك كسب عرابي تأييدا شعبيا جارفا ولقبوه بحامي حمى الديار المصرية، معتبرين أن بقـــاء الخديو في الإســـكندرية بعد احتلالها يعـــد تواطؤا مع القوات الإنجليزية المحتلة .

أصدر الخديو منشـــورا يحذر فيه المصريـــين من الانضمام إلى عرابي باعتباره مسئولا عما وقع من حوادث، إلا أن رد فعل المصريين كان التمسك بالمقاومة تحت قيادة أحمد عرابي، فتقدمت القوات الإنجليزية صوب كفر الـــدوار، إلا أن القوات المصرية نجحت في صدها وهزيمتها، وأدرك الإنجليز صعوبة اختراق تلك التحصينات والمرور إلى القاهرة عبر كفر الدوار، فعاودت القوات الإنجليزية إلى الاسكندرية باحثةً عن طريق آخر للوصول إلى العاصمة، وبذلك فقد حققت القوات المصرية نصرا عســـكريا ومعنويا كبيرا على قوات الاحتلال الإنجليزي، لكن تأتي الرياح بما لاتشتهيه السفن .

٢ـ معركة التل الكبير ١٨٨٢م :

تُعتـــبر معركة التل الكبير واحدة من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الأمة المصرية، إذ كانت هزيمة القوات المصرية بها سببا مباشرا لتمكن الإحتلال الإنجليزي مـــن دخول القاهرة وبداية الاحتلال البريطاني لمصر والذي اســـتمر لما يقرب من أربعة وسبعون عاما .

وقد ذكرنا أن القوات الانجليزية فشـــلت في تخطي تحصينات عرابي عند كفر الدوار، لذا استغلت المناوشات الكلامية بين عرابي والخديو توفيق، وأسرعت تبحث عن طريق آخر يمكنها من الوصول إلى القاهـــرة، ويبدو أن إحتلال الإســـكندرية كان عملية تمويهية قصد بها الإنجليز إخفاء الغرض الأساسي للغزو من ناحية، ومن ناحية أخرى تشـــتيت قوات الجيش المصـــري في أكثر من جبهة، وبالفعل عمل الإنجليز على الحركة باتجاه شمال قناة السويس والعمل على اختراقها بأســـطولهم، وقد فطـــن عرابي إلى مايدور في أذهان الإنجليز، فأســـرع إلى القناة بنية تعطيل الملاحة بها وردم مدخلها الشـــمالي ليقطع الطريق على الأسطول الإنجليزي، إلا أن إدارة شـــركة قناة السويس، وكانت إدارة الشركة للفرنسيين حينئـــذ، طمأنت عرابي بأنه لن يســـمح للبوارج الحربية أي كان نوعها بالدخول إلى القناة .

عاد عرابي بقواته إلى التل الكبير بالقرب من محافظة الشرقية، وعمل على الاستعداد للمواجهة الأكيدة مع القوات الإنجليزية،

إلا أن إدارة شركة قناة السويس خالفت عهدها لعرابي، وسمحت للبوارج الحربية الإنجليزية بالمرور في قناة السويس، وكانت المفاجأة للعرابيين بوصول الإنجليز إلى الاسماعيلية، وبدأوا في إقامة معسكراتهم بها .

دارت مناوشات بين العرابيين والإنجليز عند منطقة تعرف بالقصاصين والتي تبعد عن التل الكبير بحوالي خمسة عشر كم، وقد استطاعت القوات المصرية تكبيد القوات الإنجليزية خسائر كبيرة، إلا أن النتيجة النهائية لتلك المناوشات كانت لصالح الإنجليز .

بدأ عرابي يستعد للمواجهة الفاصلة في التل الكبير، إلا أن الظروف المحيطة كانت كلها ضد المصلحة المصرية، فقد قام السلطان العثماني (كانت مصر لاتزال ولاية عثمانية) بإيعاز من الخديو والإنجليز بإصدار فرمان بعصيان أحمد عرابي وإظهار عرابي ومن معه بمثابة حركة متمردة خارجة على الشرعية في مصر وقد عمّق هذا الفرمان الانقسام في صفوف القوات المصرية والتي انقسمت بين فريق مؤيد لعرابي، وفريق آخر مؤيد للخديو، وإظهار الإنجليز بمظهر حُماة سلطة الخديو الشرعية .

كذلك كان هناك فريق كبير من الحركة الوطنية تختلف أهدافه عن أهداف أحمد عرابي، من حيث بقاء الخديو توفيق في السلطة أو عزله كما كان يريد عرابي، فكان منهم من يريد

التخلص من التدخل الأجنبي ولايريد في الوقت نفسه تحدي سلطة الخديو باعتباره ولي الأمر الفعلي، وكان من شأن هذا الخلط تفتيت وحدة الحركة الوطنية .

كما كان لوجود بعض العناصر الانهزامية في صفوف الوطنيين أثرا واضحا على نتيجة المعركة، حيث كانت هذه العناصر ترى الانصياع لرغبات الخديو والإنجليز وإيقاف الثورة، ووصل الأمر بهم إلى الاقتناع بطلب الإنجليز مغادرة عرابي البلاد .

لا نستطيع أن نغفل كذلك أن المشكلة الأساسية التي واجهت العرابيين هي الاعتماد المبالغ فيه على الصراعات الأوروبية، والظن بأنها يمكن أن تحول دون تحقيق أهداف الإنجليز، ويبدو أن عرابي حتى آخر لحظة كان يشك في أن بوارج الانجليز ستضرب حصون الاسكندرية حقا، الا أن ذلك كان قصر نظر منه، وعدم فهم منه لطبيعة التناقضات بين الإمبريالية الأوروبية .

دارت المعركة في التل الكبير بين القوات المصرية المهزومة قبل أن تبدأ المعركة، وبين قوات الاحتلال الإنجليزي، وظهر جليا عدم تكافؤ القوى العسكرية بين الطرفين، والتفوق الواضح للقوات الإنجليزية من حيث التسليح، فبينما كان عدد الحصون في سنة ١٨٨٢م كانت ١٥حصنا تضم ٣١٨ مدفعا، وبينما كانت جملة وزن المدافع في الحصون المصرية ٣١٨ طنا فان وزن مدافع الأسطول قد وصل إلى١٥٢٥ طنا، كذلك فإن جملة العيار بالبوصات

كانت ٣٥٩ بوصة مقابل ٧٧٩ بوصة لمدافع الأسطول . [١٦]

على أي حال، اجتمعت كل هذه العوامل وأدت إلى هزيمة القوات المصرية في التل الكبير، ودخلت القوات الإنجليزية إلى القاهرة في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢م، وبرفقتهم الخديو توفيق، واستعرضوا قوتهم في ساحة ميدان عابدين .

ورغم الهزيمة إلا أن المعركة لم تخل من البطولات التي اعتدنا على أبناء مصر أن يقدموها دون البحث عن مقابل، فقد تناثرت أشلاء الجنود والضباط المصريين مثل محمد عبيد وغيره من الأبطال وهم يحاولون وقف هذا الزحف الاستعماري، فقد ذكرهم عرابي وهو في طريقه إلى منفاه في جزيرة سيلان بعد الهزيمة قائلا « محمد عبيد، تناثرت جثته في ثرى التل الكبير وهو يحاول إيقاف هذه الخيانة، ما كان أشجعه ذلك الضابط الفلاح الطيب، في أول فبراير أنقذنا من السجن في قصر النيل، وبعدها بعام ونصف، وهب حياته لمصر، لا قبس له ولا قبر لعشرة آلاف من أولاد مصر قتلتهم الخيانة في الصحراء الشرقية، أكوام من العظم، لا اسم لأصحابها، وغدا تتحرر الأرض، فهل يذكرونهم ولو بمجرد شاهد رخامي صغير » [١٧]

١٦ - (صلاح عيسى - الثورة العرابية - ص٤١٢)

١٧ - (صلاح عيسى - الثورة العرابية - ص٤٥١)

وأنـــا أقول لعرابي، نعم تذكرناكم وســـنظل نذكركم، ولا ننســـى ما قدمه آباءنا وأجدادنا من أجل الحفاظ على هذا الثرى الطيب، وســـنبذل كل ما نملك للدفاع عنه بإذن الله .

علـــى أي حال، وبالهزيمة في التل الكبـــير، بدأت مصر مرحلة جديـــدة من المراحل العصيبة التي مرت عليها، وهي فترة الاحتلال الإنجليزي .

الحرب العالمية الأولى وآثارها على مصر ١٩١٤م:١٩١٨م:

لم تكن مصر طرفا رئيســـا في الحرب العالميـــة الأولى، إلا أنها كانـــت كغيرها من الدول المســـتعمرة التي تم اقحامها في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، فكان للحرب آثارا جلية على السياســـة المصرية، ولعبت دورا كبيرا في تغير المناخ السياسي وتعميق مشاعر الكراهيـــة للمصريين ضد الاحتلال البريطاني .

قامت الحرب العالمية في عام ١٩١٤م بين معســـكرين كبيرين، الأول يضم تحالف ألمانيـــا والدولة العثمانية (تركيا) وحلفائهما وعرفوا باسم دول الوسط، والثاني يضم إنجلترا وفرنسا وحلفائهما وعرفوا باسم دول الحلفاء، ولم تخرج أسباب هذه الحرب عن كونها تنافســـا اســـتعماريا بين الدول الأوروبية الكبرى واضطرت الدولة العثمانية إلى دخولـــه في محاولة منها للحفاظ على ما تبقى من امبراطوريتها، إلا أنها لم تنجح في ذلك .

أما عن آثار الحرب العالميـــة الأولى على مصر فتتلخص في أن مصر قبيل اندلاع الحرب كانت ولاية عثمانية، ومع دعوات الدولة العثمانية إلى الجهاد المُقدس ضد الحلفاء، خشيت إنجلترا من أن تؤثر تلك الدعوة على المناطق الواقعة تحت سيطرتها وبها أغلبية مسلمة، ومنها مصر، لذا عملت على اتخاذ مجموعة من الإجراءات السريعة مع الســـاعات الأولى للحرب، لتضمن بتلك الإجراءات خضوع تلك المناطق لســـيطرتها التامـــة وقطع الصلة بين تلك المناطق وبين الدولة العثمانية، وكان على رأسها مصر .

فقد قامت إنجلـــترا بإعلان الحمايـــة البريطانية على مصر والـــذي يعني خضوع مصر المطلق لســـلطات الاحتلال البريطاني وقطـــع الصلة نهائيا بين مصر وبين الدولـــة العثمانية التي تمثل دولة الخلافة أنذاك، كما قامت بعزل الخديو عباس حلمي الثاني والذي يمثل السلطة الشرعية في مصر قبيل اندلاع الحرب وعينت عمه حسين كامل بدلا منه، بل ومنحته لقب سلطان ليكون لقبا منافسا للقب السلطان العثماني .

قامـــت إنجلترا بتجنيد المصريين قســـرا في الخطوط الخلفية للحرب، وتشـــير بعض المصـــادر إلى أن عدد مـــن جندته إنجلترا مـــن المصريين إبان الحـــرب العالمية الأولى قد بلـــغ ما يقرب من مليون مصري، وعملت كذلك على مصادرة مواشـــي الفلاحين ومحاصيلهـــم بأبخس الأثمان لصـــالح مجهوداتها الحربية .

فرضت إنجلترا الأحكام العرفيـــة على البلاد، وفرضت الرقابة على الصحـــف المصرية ومنعت اجتماعات الجمعية التشـــريعية، والـــتي كانت تمثل الهيئة النيابية في مصـــر قبيل الحرب العالمية الأولى .

وقد ترتب على كل هذه الاجراءات التعسفية لإنجلترا ارتفاع أسعار الحبوب الغذائية والمنسوجات والوقود وأجور المواصلات دون أن يصاحبها ارتفاع مماثل في الأجور والمرتبات .

انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار دول الحلفاء، إلا أن معاناة الشعب المصري من بطش الاحتلال الإنجليزي لم تنتهي .

الحـرب العالمية الثانية وآثارها على مصر ١٩٣٩م : ١٩٤٥ م:

وقعـــت الحـــرب العالمية الثانيـــة عام ١٩٣٩م ضمـــن التنافس الاســـتعماري بين الدول الأوروبية، ولم تختلف أســـبابها الخفية كثيرا عن أسباب الحرب العالمية الأولى، وحتى أطرافها، فقد دارت بين معســـكرين الأول بقيادة إنجلترا وفرنسا المعروفين بالحلفاء، والثاني بقيادة ألمانيـــا وإيطاليا وعرفوا بدول المحور، ورغم حصول مصر على استقلال شكلي عن بريطانيا بموجب تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢م، إلا أن القوات الإنجليزية لم تغادر الأراضي المصرية، وخاصة منطقة قناة الســـويس بموجب معاهدة التحالف والصداقة التي وقعتهـــا مصر مع بريطانيا عام ١٩٣٦م، كما أن إيطاليا وهي دولة

رئيسة في التحالف المعادي لإنجلترا أثناء الحرب كانت تحتل الأراضي الليبية، وعلى ذلك دارت عدة معارك بين قوات الحلفاء وقوات المحور على الحدود المصرية الليبية في غرب مصر .

بنى الإنجليز خطتهم العسكرية على أساس استدراج القوات الإيطالية الألمانية إلى مرسى مطروح، وكان للجيش المصري في ذلك الحين وحدات مدفعية مضادة للطائرات، كما وزعت وحدات من سلاح الحدود المصري فيما بين السلوم وسيوة للقيام بالدوريات على طول الحدود .

يبدو أن بريطانيا خشيت من اندلاع ثورة مصرية ضدها في الوقت الذي تكون مشغولة فيه غربا ضد الإيطاليين، خاصة وإن شاركت بعض العناصر المسلحة من الجيش المصري في تلك الثورة، لذا عملت بريطانيا على اشراك القوات المصرية في أعمال حربية أو توزيعها في مناطق نائية لشغلها عن الاشتراك في أعمال عدوانية ضد القوات البريطانية في الداخل المصري .

دارت عدة معارك بين الإنجليز والايطاليين في الجبهة الغربية لمصر، كان أشهرها في منطقة العلمين، حقق فيها الإنجليز نصر صعبا على القوات المشتركة الإيطالية الألمانية بقيادة روميل الذي تقهقرت قواته أمام قوات الإنجليز .

كان الجيش المصري خلال هذه الفترة لا يمثل أكثر من جيشا دفاعيا، يعمل على الدفاع عن مصالح بريطانيا في المنطقة،

بموجب المعاهدة الـــتي وقعت بين الحكومتين المصرية والبريطانية عام ١٩٣٦م، وكمـــا يذكر اللواء عبد المنعـــم خليل والذي خدم في أحـــد كتائب الخدمـــات العامة المصرية « ولمـــا انتهت الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م لم يكـــن للجيش المصري نصيب يذكر من خـــبرة الحرب أو التدريب القتالي، ولكنه كان له نصيب كبير في الخضوع لتعليمات وأوامر القيادة البريطانية الاستعمارية لخدمة مصالحها »

على أي حال انتهت الحرب بانتصار جديد لانجلترا وحلفائها، أما مصر لم تجن من هذا الانتصار إلا ملايين الألغام الأرضية التي مازالت مدفونة في رمال الصحراء الغربية .

حرب فلسطين ١٩٤٨م :

حرب فلسطين هي الحرب الرسمية الأولى التي تخوضها الدول العربية ضد الكيان الصهيوني الذي يدعى إسرائيل، أما ما سبقها فلم يكـــن إلا مجموعة من حركات المقاومـــة الغير نظامية ضد الصهيونيـــة، والصهيونية باختصار شـــديد هي حركة سياســـية أسسها صحفي يهودي في لندن تدعو إلى إقامة وطن قومي لليهود على أرض فلسطين العربية، فلم يعرف لليهود أرض بعينها يعيشون عليهـــا، ورغم أنهـــم كانوا شـــتات في الأرض إلا أنهم لم يعترفوا يوما بفكرة القومية بالنســـبة للبلاد التي كانوا يعيشون فيها، بل

تطلعوا دائمـــا إلى إقامة دولة لهم تجمـــع اليهود من كل مكان، وقد ساعدتهم الدول الاســـتعمارية خاصة بريطانيا والتي كانت تستعمر أرض فلســـطين ولها حق الانتداب على أراضيها منذ عام ١٩٢٠م، حتـــى أصبح العرب أمام أمر واقـــع يتمثل في وجود مئات الألـــوف من اليهود القادمين من كل أنحـــاء العالم وخاصة دول أوروبا الشرقية إلى أراضي فلسطين العربية، وفي يوم ١٥مايو١٩٤٨م، أعلـــن اليهود قيام دولتهم المزعومة على جزء من أرض فلســـطين اقتطعته لها الدول الاســـتعمارية بموجب قرار للأمم المتحدة عام ١٩٤٧م عرف بقرار التقسيم .

على أي حال كانت المســـئولية بحكـــم العروبة واللغة والدين وحتى الانسانية تحتم على الدول العربية التدخل السريع لمحاولة الوقـــوف ضد هذه الاجراءات، وفي رأيـــي أن هذا التدخل قد تأخر لأكثـــر من ثلاثين عاما، إلا أن مبررنا الوحيد لهذا التأخر هو أن الدول العربية وخاصة مصر لم تكن تمتلك قرارها إذ كان جلها قابع في براثن الاستعمار .

في ليلة ١٥مايـــو١٩٤٨م، أصدر مجلس الـــوزراء المصري البلاغ الرسمي التالي «صدرت التعليمـــات إلى قوات من الجيش المصري بدخول فلســـطين لإعادة الأمن والنظام فيهـــا، ولايقاف المذابح التي تقترفهـــا العصابات الإرهابية الصهيونيـــة ضد العرب وضد الإنســـانية «، وكان هذا البلاغ الحكومي الرسمي إعلانا للحرب ضد الصهيونية .

كان لليهود تجارب حربية ميدانية قوية، لاسيما فترة الحرب العالمية الثانية إذ قاتلوا إلى جوار الحلفاء، وكسبوا خبرات وروح عسكرية كبيرة، أما الجيوش العربية فلم يكن جنودها بنفس الكفاءة القتالية التي عليها اليهود ولم يتدربوا على حمل السلاح بشكل كاف، وإنما اعتمدوا فقط على حماستهم وشجاعتهم، كما أن إنجلترا أنهت انتدابها على فلسطين وقررت الانسحاب منها قبل يوم واحد فقط من إعلان دولة اسرائيل وقد انسحبت بأسلوب يسمح لليهود بالاستيلاء على مناطق لها أهميتها في الحرب القادمة .

اجتازت القوات المصرية الحدود المصرية الفلسطينية بهدف الوصول إلى غزة بأسرع ما يمكن، وحققت انتصارات متتالية على الجبهة المكلفة بها، حتى وصلت طلائع القوات المصرية إلى أسدود فأصبحت على مسافة أقل من ثلاثين ميلا من تل الربيع (تل أبيب)، ومن هذه الانتصارات كان الانتصار في معركة مستوطنة نيتساليم ولكن الغريب في الأمر أن القوات المصرية بعد أن استطاعت طرد عصابات الصهاينة منها، تركتها دون حماية، فعاود الصهاينة احتلالها، وكان هناك موقف مشابه دون مبرر من الملك عبدالله ملك الأردن حينئذ عندما أصدر أوامره إلى قائد قواته في فلسطين بسحب القوات الأردنية من منطقتي اللد والرملة، وسمح للقوات الإسرائيلية بدخولها . [١٨]

١٨ - (لواء عبد المنعم خليل - حروب مصر المعاصرة - ص٣٢)

فهل كان للأنظمة العربية دور في ضياع فلسطين ؟ بكل وضوح نعم، ليس بدافع الخيانة ربما، ولكن خضوعا لرغبات الدول الاستعمارية التي كانت تتحكم في عروش ملوك العرب حينها وخشية منهم على استبدالهم، إلا أن الحركات الوطنية في البلاد العربية لم ترحمهم، ومالبثت حرب فلسطين أن انتهت بهزيمة العرب إلا وبدأت الحركات التحررية من تلك الأنظمة والدول الاستعمارية معا تبذل قصارى جهدها لنيل الاستقلال التام .

لم تكن القوات المصرية هي الوحيدة التي تقاتل في فلسطين، فقد اشتركت جيوش وفرق عسكرية من دول عربية عدة منها سوريا ولبنان والأردن والعراق، بالاضافة إلى الفرق السودانية التي كانت محسوبة على الجيش المصري، ورغم ذلك وجدنا الجيوش العربية تخرج مهزومة من حرب فلسطين لأسباب عدة استبعد منها ما يُشاع عن صفقة الأسلحة الفاسدة، فلم تكن القوات العربية على نفس كفاءة وتسليح القوات الصهيونية رغم التفوق العددي للعرب، كما أن موقف الدول الكبرى المنحاز لإسرائيل سياسيا واقتصاديا وعسكريا والتغاضي عن عدم التزام إسرائيل بقرارات الهدنة التي فرضت على الجانبين كان له أثر واضح في نتيجة الحرب، أضف إلى ذلك التخبط السياسي في الدول العربية وعدم قدرتهم على اتخاذ قرارات صائبة فيما يخص قضية فلسطين .

انتهت الحرب بهزيمة الدول العربية، واحتلال اليهود لكل الأراضي الفلسطينية فيما عدا ثلاث مناطق وهي : الضفة الغربية

لنهـــر الأردن والتي بقيت بها القوات الأردنيـــة، وقطاع غزة والذي كان تحت إدارة مصرية، والقدس التي قسمت بين العرب واليهود، وكانت الهزيمة في هذه الحرب هي إحدى الحلقات الكبيرة والمؤثرة في سلسلة الهزائم التي أدت إلى ضياع فلسطين، ولكن إلى حين .....

حرب العدوان الثلاثي ١٩٥٦م :

العـــدوان الثلاثي على مصر هـــو عدوانا غاشما قامت به كل من إنجلترا وفرنســـا والكيان الإسرائيلي في عام ١٩٥٦م على مصر، ويعتبر أوضح مثال لالتقاء أهداف الدول الاســـتعمارية ممثلة في إنجلترا وفرنسا، مع أهداف الصهيونية ممثلة في الكيان الإسرائيلي لتوجيه ضربة عسكرية تهدف إلى القضاء على قوة مصر التي تُعتبر القوة الوحيدة المهددة لهم في المنطقة حينها، وسعيا للسيطرة على قناة السويس التي تعتبر أهم ممر ملاحي في العالم .

أما عن الأســـباب المباشرة التي دفعت هذه القوى للتحالف معا ضـــد مصر فيمكن أن نلخصها في الأســـباب الآتية : -- أولا : قرار تأميم شـــركة قناة الســـويس البحرية لتصبح شركة مساهمة مصريـــة والذي اتخذه الرئيس جمال عبد الناصر في يوليو ١٩٥٦م قد أضر بمصالح الـــدول الكبرى خاصة إنجلترا .

- ثانيا : كان لمصر دورا كبيرا في مناصرة حركات التحرر في الجزائر الشقيق ضد الاســـتعمار الفرنسي هناك، ولم تضن مصر

على الجزائر بالمساعدات سواء كانت عسكرية أو سياسية، وأدركت فرنسا أن لا انتصار لها على الثورة في الجزائر إلا بعد القضاء على قوة مصر واشغالها بنفسها لتكف دعمها للثائرين الجزائريين .

- ثالثا : استطاعت الحكومة المصرية في عام ١٩٥٥م كسر احتكار السلاح العالمي الذي كان لصالح الدول الغربية من خلال صفقة أسلحة ليست بالهينة، عقدتها مع الاتحاد السوفيتي، وأدرك الكيان الإسرائيلي أن هذه الصفقة موجهة اليهم تحديدا، فعملوا على استنزافها ومنع مصر من استخدامها ضدهم، ولا ننسى أن الثقافة الصهيونية تؤمن بضرورة السعي لإقامة دولة لهم تمتد من النيل إلى الفرات، وكان هذا هو الدافع الأكبر للصهيونية التي سعت دائما وأبدا للقضاء على قوة مصر .

على أي حال، اجتمعت هذه العوامل جميعها وأدت إلى اتحاد هذه القوى الثلاث، كل منهم يسعى لتحقيق أهدافه من هذا العدوان، وكانت فكرتهم تتلخص في تدمير سلاح الجو المصري، ثم الهجوم بالقوات المحمولة برا وبحرا على شمال قناة السويس والتقدم للاستيلاء على قناة السويس كاملة واحتلال مُدن القناة بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وفي نفس التوقيت تجتاح القوات الإسرائيلية سيناء من الجهة الشمالية الشرقية، وبذلك يتم حصار القوات المصرية في سيناء .

كانت القوات الرئيسية المصرية تأخذ مواقع دفاعية ثابتة في عدة مناطق في سيناء، منها رفح والعريش وأبو عجيلة وشرم الشيخ وغيرها، ويوجد في غرب القناة فرقتين مشاة وفرقة مدرعة .

بالفعل تقدمت القوات الإسرائيلية إلى داخل سيناء، وبدأت المناوشات والمعارك التي تفوقت القوات المصرية في أكثرها، وهنا بدأ الجزء الثاني من المخطط الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي، حيث وجهت بريطانيا وفرنسا انذارا لمصر وإسرائيل يحتوي على وقف الأعمال الحربية فورا وانسحاب القوات المصرية إلى غرب قناة السويس والقوات الإسرائيلية إلى عشرة أميال شرق القناة، وأن تقبل مصر الاحتلال المؤقت لبورسعيد والإسماعيلية والسويس من جانب القوات الانجليزية الفرنسية حتى يمكن الفصل بين القوات المتحاربة وحماية حرية الملاحة في القناة .

من الواضح التنسيق التام بين اسرائيل من جهة وبين إنجلترا وفرنسا من جهة ثانية لتبرير الإنزال الفرنسي الإنجليزي في القناة، وخاصة أن الانذار طلب الرد خلال ١٢ ساعة فقط، وعلى أي حال فقد رفضت مصر هذا الإنذار تماما .

بدأ الطيران الفرنسي الإنجليزي المشترك في قصف القواعد الجوية المصرية بعد انتهاء المهلة التي أعطاها الإنذار، ومع استمرار القصف الجوي، أصدرت القيادة المصرية أوامرها للجيش المصري في سيناء بالانسحاب إلى غرب القناة حتى لايتم حصار القوات

المصرية بين اليهود شـــرقا والقوات الإنجليزية الفرنســـية المتوقع نزولها إلى منطقة القناة غرب القوات المصرية في ســـيناء .

نزلت القوات الإنجليزية والفرنســـية إلى بورسعيد، وسعت إلى التقـــدم إلى الإسماعيلية، إلا أن المقاومة الشـــعبية في بورســـعيد مدعومة برجال القوات المســـلحة نجحت في صد القوات المعتدية ومنعت خروجها من بورســـعيد في اتجـــاه مدينة الإسماعيلية .

كانت كل العوامل التي تؤدي إلى نجاح هذا العدوان متوفرة، إلا أن الجميع فوجئ بوقف العمليـــات الحربية في نوفمبر ١٩٥٦م وخروج القوات البريطانية والفرنســـية من منطقة بورســـعيد في ديسمبر ١٩٥٦م، وانسحاب القوات الإسرائيلية من شبه جزيرة سيناء في أوائل عام ١٩٥٧م، وقد تضافرت مجموعة من الأســـباب التي أدت إلى فشـــل هذا العدوان منها موافقة مصر على قرار الأمم المتحدة الـــذي يقضي بوجود قوات طوارئ دولية على الحدود الفاصلة بين مصر والكيان الإسرائيلي وفي منطقة شرم الشيخ فأدى ذلك بدوره إلى تدخل الأمم المتحدة وتنديدها بالعدوان على مصر ومطالبتها للدول المعتدية بالإنسحاب، بالإضافة إلى ضغط الولايات المتحدة علـــى كل من إنجلترا وفرنســـا حتى لاينفردا بقناة الســـويس، كما أن الاتحاد الســـوفيتي والذي كانت تجمعه مصالح كبيرة مع الـــدول العربية خاصة مصر حينئذ قد هـــدد الدول المعتدية، ويبدو أن ثورة العمال المتعطلين عن العمل في إنجلترا وفرنسا ضد حكومتهما لعبت دورا في إرباك انجلترا وفرنسا، ولا نغفل كذلك

المقاومة الباسلة لأهالي بورسعيد والفدائيين من رجال الجيش ضد القوات الفرنسية الإنجليزية المشتركة .

انتهى العدوان الثلاثي بالفشل، إلا أن رغبة الكيان الإسرائيلي في القضاء على قوة مصر، وأمنياته في الاتساع ليشمل الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات، والدعم الغربي من الدول الإمبريالية الاستعمارية له، ستدفع الكيان الإسرائيلي إلى خوض المزيد من المعارك من أجل تحقيق تلك الأهداف .

العدوان الاسرائيلي ٥يونيه ١٩٦٧م (النكسة):

مرة جديدة التقت أهداف الاستعمار مع أهداف الصهيونية في توجيه ضربة عسكرية للدول العربية وعلى رأسها مصر، أما أهداف الصهيونية فقد تحدثنا عنها في العدوان الثلاثي، بينما أهداف الاستعمار فقد تمثل هذه المرة في الولايات المتحدة الأمريكية التي رأت مساندة الكيان الاسرائيلي لتوجيه هذه الضربة لتحقيق عدة أغراض منها توجيه ضربة للشيوعية ممثلة في الاتحاد السوفيتي الذي تربطه مصالح مشتركة مع مصر ومعظم الدول العربية ومحاولة تطويقه من جهة الجنوب، بالاضافة إلىالسيطرة على المنطقة العربية الغنية بالثروات وبصفة خاصة النفط وطرق نقله .

استطاعت إسرائيل استدراج مصر والدول العربية إلى حرب جديدة يبدو أن العرب لم يكونوا على استعداد لها، حيث قامت

اســـرائيل بحشد قواتها العســـكرية على الحدود بينها وبين سوريا فـــردت مصر على ذلك باعلان وقوفها بجانب ســـوريا وأعلنت ان أي اعتداء على سوريا يعتبر اعتداءا على مصر، وطلبت مصر من قوات الطـــوارئ الدولية الموجودة على الحـــدود بين مصر والكيان الإســـرائيلي ومنطقة شرم الشيخ الانســـحاب من بعض النقاط، كما أعلنت مصر اغلاق مدخل خليج العقبة تماما عند ما يعرف بمضيق تيران أمام السفن التي تحمل العلم الإسرائيلي وكذلك ناقلات البترول على اختلاف جنســـيتها والمتجهة إلى ميناء ايلات بينما يسمح للسفن الخارجة من الخليج على اختلاف جنسياتها بالخروج .

بعد ظهر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م، قام ســـلاح الطيران الإســـرائيلي بتوجيه ضربة جوية قوية لكل الطائرات والمطارات المصرية، ويبدو أن أجهزة التجســـس الأمريكية والأقمار الصناعية قد لعبت دورا كبيرا في إمداد القوات الإســـرائيلية بالاحداثيات بشكل تفصيلي، وعلى هذا فقد حققت الضربة الجوية الاســـرائيلية نجاحا أكثر مما توقعه الإسرائيليين أنفسهم، فقد تم تدمير سلاح الجو المصري تماما وترتب على ذلك أن الجيش المصري في شـــبه جزيرة سيناء أصبح بدون غطاء جوي ففقدت مصر ما يقرب من ثمانون في المائة من قوتها العسكرية .

أصدر المشـــير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة حينها أوامره للقوات المصرية كلها بالانســـحاب إلى غرب القناة،

دون وجود خطة واضحة للانسحاب، فكانت مهزلة عسكرية على أراضي سيناء وأقل ما توصف به أنها كانت انتحارا وليس انسحابا، ورغم ذلك لم يخل هذا الانسحاب من البطولات التي قام بها رجال القوات المسلحة حينها وأخص منهم بالذكر والدي العزيز الذي كان يخدم حينها برتبة ملازم أول في مطار المليز شرق القناة .

على أي حال، تعددت أسباب الهزيمة، وقد اتفق مع رؤية اللواء عبد المنعم خليل والذي كان قائدا لقوات شرم الشيخ إبان عدوان ٥يونيو ١٩٦٧م حينما لخص أسباب الهزيمة في مذكراته التي تحمل اسم «في أوراق قائد ميداني» والتي صدرت في عام ١٩٩٠م، حيث أرجع أسباب الهزيمة إلى:

- أولا : تغيير الخطة فجأة بضغط من القيادة السياسية

- ثانيا : ضعف القيادة والسيطرة

- ثالثا : توالي الإشارات اللاسلكية الخاطئة

- رابعا : تردد القيادة في مسألة إغلاق خليج العقبة

- خامسا : الاستخدام الخاطئ للقوات فقد هبطت معنويات القوات بدرجة كبيرة من تغيير المهام الكثيرة ومن الدفاع والتمسك بالأرض، وهي قوات هجومية كان أملها كبير في الاشتراك في الهجوم على العدو الإسرائيلي، ولقد نجحت إسرائيل في تحقيق عامل المفاجأة، وقامت بعمليات هجومية غير متوقعة

أحدثت صدمة للقيادة المصرية جعلتها تتخبط في اتخاذ القرارات الخاصة بالانسحاب من سيناء وحولته إلى فوضى .

- سادسا : عيوب القيادة المتمثلة في الإهمال وعدم التفرغ للقتال وتخلف الفكر العسكري وسوء نظام التعبئة .

على أي حال، أدت هزيمة مصر والدول العربية من ورائها في عدوان عام ١٩٦٧م إلى استيلاء إسرائيل على شبه جزيرة سيناء بالكامل حتى وصلت بقواتها إلى الضفة الشرقية لقناة السويس، وتوغلت القوات الإسرائيلية في جبهتيها الشرقية والشمالية فاستطاعت الاستيلاء على هضبة الجولان السورية، ووصلت قواتها إلى الضفة الغربية لنهر الأردن، بالإضافة إلى تمكن اليهود من الاستيلاء على كل الأراضي الفلسطينية بما فيها القدس كاملة .

أما فيما يخص مصر، فقد بدأت في إعادة بناء قواتها المسلحة، بالتوازي مع محاولة الصمود والتصدي للاعتداءات الإسرائيلية لمنع العدو من الاستيلاء على مزيد من المواقع كما حدث في معركة رأس العش والصمود الأسطوري للقوات المصرية في بورفؤاد، والدخول في مناوشات بحرية ضد القوات الإسرائيلية ومنها تدمير المدمرة الإسرائيلية إيلات .

صدر قرار من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقمه ٢٤٢ في أواخر عام ١٩٦٧م، نص على انسحاب إسرائيل من أراض عربية

احتلتهـــا عـــام ١٩٦٧م وإنهاء حالة الحرب بين العرب واســـرائيل، واحترام الســـيادة الإقليمية والاســـتقلال السياســـي لكل دولة في المنطقة وحقها في العيش بسلام في حدود آمنة ومعترف بها، وحرية الملاحة في الممرات الدولية وتسوية مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، وإنشاء مناطق منزوعة الســـلاح، وأن يقوم السكرتير العام للأمم المتحدة بتعيين ممثل خـــاص لاجراء الاتصالات مع الدول المعنية للوصول إلى تســـوية ســـلمية، وقد وافقت مصر على القرار إلا إن إسرائيل رفضته وعملت على إفشال جميع الجهود الدولية لتحقيق الانسحاب من الأراضي المحتلة .

بدأت مصر محاولـــة نقل المعركة إلى الأراضي التي اســـتولى عليهـــا العدو، من خلال ما عرف بحرب الاســـتنزاف والتي تعددت العمليات العســـكرية فيها في شـــرق القناة، بالاضافة إلى القصف المدفعي المســـتمر للتحصينات الإســـرائيلية التي أقيمت في شرق القناة والمتمثلة في الساتر الترابي ومن خلفه الخط الحصين المنيع المعروف باسم خط بارليف .

تكبّدت القوات الإسرائيلية خسائر كبيرة لم تكن تنتظرها بعد هـــذه الفترة الوجيزة من انتصارهـــا في ١٩٦٧م، فتدخلت الولايات المتحدة لإنقاذ إسرائيل من خلال تقديم مبادرة لوقف إطلاق النار والعمل على حل الصراع بشـــكل سلمي، وعرفت هذه المبادرة باسم مبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكي، وبالفعل توقفت العمليات الحربية من الطرفين، وبعدها بأســـابيع قليلـــة تُوفِّي جمال عبد

الناصر وتولى المسئولية بعده نائبه محمد أنور السادات، ومن ثم، بدأت الجبهة المصرية في الإعداد اعتمادا على فكر جديد سينجح في تحقيق أهم انتصار لمصر والعرب في القرن العشرين، وهو انتصار أكتوبر المجيد .

حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م:

حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م التي عُرفت باسم حرب العاشر من رمضان، أو حرب تشرين وأطلق عليها اليهود حرب يوم كيبور أو يوم الغفران، تُعتبر واحدة من أهم الحروب التي خاضتها مصر في تاريخها، ورغم محاولات اليهود التشكيك في قيمة ما حققته مصر من انتصار عسكري في أكتوبر ١٩٧٣م، إلا أنه يظل في الحقيقة الانتصار الأعظم للجيش المصري منذ حطين وعين جالوت .

وقد كان لفشل كل الجهود السياسية للتوصل إلى حل سلمي عن طريق الأمم المتحدة بسبب تعنت إسرائيل وإصرارها على الاحتفاظ بجميع الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧م، سببا كافيا لاندلاع حرب أكتوبر، إلا أن القيادة السياسية والعسكرية في مصر هذه المرة قد استفادت من الأخطاء التي وقعت فيها سابقتها، وعملت على عدم خوض معركة جديدة ضد الكيان الاسرائيلي إلا بعد إتمام الاستعداد اللازم والكافي، وتهيئة الجبهتين الداخلية والعربية تهيئة تامة لخوض المعركة التي لا تتحمل إلا نتيجة

واحدة وهي الانتصار على الكيان الإسرائيلي، فكان السادات يسير على ثلاثة خطوط متوازية، الأول البناء العسكري للمعركة، والثاني الجهد السياسي في كل الميادين لخدمة المعركة، والثالث بناء الدولة الحديثة على العلم والإيمان .

وكانت الخطة تهدف إلى نقل الجزء الأكبر من القوات المصرية إلى الضفة الشرقية لقناة السويس الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٧م، وقد عبّر الرئيس الراحل محمد أنور السادات عن ذلك بمقولته مخاطبا قادة القوات المسلحة المصرية في أحد الاجتماعات الرسمية عام ١٩٧١م « كل ما أريده منكم هو أن تعطوني عشرة سنتيمترات فقط في الضفة الشرقية لقناة السويس في سيناء، وأنا كفيل بعد هذا في حل الموضوع سلميا «

على أي حال، بدأت المعركة في تمام الثانية ظهرا يوم السبت الموافق السادس من أكتوبر لعام ١٩٧٣م، بعد أن أعطى الرئيس السادات إشارة بدء الحرب، وقامت الحرب على الجبهتين المصرية والسورية بتنسيق تام في نفس التوقيت، وكانت القيادة العامة للقوات المصرية السورية المشتركة إبان الحرب للمشير أحمد اسماعيل، بينما كانت رئاسة أركان حرب القوات المسلحة المصرية للفريق سعد الدين الشاذلي وهو الذي وضع خطة عبور القناة والتي عُرفت باسم (المآذن العالية) .

كان أمام القوات المصرية مجموعة من العوائق والتي يستحيل معها نقل أي جندي مصري إلى شرق القناة، حيث كانت قناة السويس نفسها هي الحائل الأول أمام العبور، فكيف ستنقل عشرات الألاف من الأفراد وألاف المعدات والآليات العسكرية عبر القناة دون أن يهاجمها العدو ؟، وإذا افترضنا النجاح في ذلك، فكيف ستخترق القوات المصرية الساتر الترابي العملاق الذي أقامه اليهود على الضفة الشرقية لقناة السويس ؟ وكيف ستتمكن من تدمير وإتمام السيطرة على خط بارليف المنيع الذي أقامه اليهود خلف الساتر الترابي والذي يتكون من مجموعة من النقاط القوية التي تم بناءها من الخراسانة والفولاذ ؟

إلا أن الايمان بالله والتخطيط الجيد وعزم الرجال كانت أقوى بكثير من أي عائق، ولك أن تتخيل عظمة هذا المشهد، ففي اللحظات الأولى للمعركة عبر سلاح الجو المصري ممثل في حوالي مائتي طائرة من طرازات مختلفة قناة السويس، كل منها تصيب الأهداف المطلوب منها اصابتها بدقة عالية، وحققت أعلى نسبة نجاح ممكنة لضربة مماثلة ونجحت في شل القيادة الإسرائيلية لمدة أربع ساعات تقريبا كانت كافية لعبور المشاة، وفي نفس التوقيت كان ما يقرب من عشرة آلاف مدفع يفتح النيران الكثيفة على تحصينات العدو شرق القناة مما أعطى تمهيدا نيرانيا مثاليا لطليعة القوات البرية لعبور القناة بواسطة القوارب المطاطية، وقيام سلاح المهندسين بإقامة المعابر على طول

القناة لعبور الدبابات والمدرعات إلى الضفة الشرقية وفتح ثغرات في الساتر الترابي بواسطة مضخات المياه حتى تتمكن هذه الآليات من الدخول إلى قلب سيناء، وما هي إلا ست ساعات فقط إلا وكانت معظم نقاط خط بارليف تحت سيطرة القوات المصرية يرفرف عليها علم مصر خفاقا .

بدأت الدبابات الإسرائيلية تتحرك باتجاه قناة السويس في اتجاه حصون خط بارليف في محاولة لنجدتها إلا أن مئات الصواريخ المضادة للدبابات كانت في انتظارهم، فلم تتمكن أي من هذه الدبابات من الوصول إلى الحصون .

استطاعت القوات المصرية احتلال كل حصون خط بارليف في الساعات الأولى للحرب ماعدا حصنا واحدا هو الحصن الموجود شرق بورفؤاد الذي تأخر استسلامه، وأشرف بأن والدي كان من المجموعة المحاصرة لهذا الحصن .

في يوم ١٤أكتوبر ١٩٧٣م قررت القيادة السياسية في مصر دفع القوات المدرعة المصرية للعبور شرقا والتقدم إلى المضايق في قلب سيناء، وذلك بغرض تخفيف الضغط الإسرائيلي على الجبهة السورية، وبدأت بعض التحركات الاسرائيلية تنذر بانهم يفكرون في عبور القناة إلى ضفتها الغربية لاعادة الحرب بعد ان خسروها في شرق القناة، وانتهز الإسرائيليون الفرصة، بعد أن أصبح الغرب المصري في قطاع البحيرات المرة وكل المنطقة جنوب الإسماعيلية

وغرب قناة السـويس خاليا من القوات المقاتلة المصرية، اللهم إلا من بعض كتائـب الصواريخ المضادة للطائرات وكتائب مدفعية الميدان ووحدات إدارية ومؤخرات الوحدات التي عبرت شـرقا، كما اتسـعت الفجوة بين الجيشين الثاني والثالث غرب قناة السويس، فقررت القيادة سرعة تنفيذ خطة الاختراق في هذا القطاع الخالي في منطقة الدفرسوار، وهو ما يعرف بالثغرة .

يبدو أن القيادة العسكرية المصرية كان لديها أكثر من خطة لتصفية تلك الثغرة، إلا أن قبول قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار قد حال دون تنفيذها، والسـؤال هنا، لماذا وافق السادات على وقف إطلاق النيران ؟

الإجابة نأخذها من الرئيس السـادات نفسه، حينما وُجه إليه هذا السـؤال، كانت اجابته كالتالي :

«لم يطلب مني أحد ذلك، ولكني أردت ألا أعطي إسرائيل فرصة اسـتخدام الأسـلحة الأمريكية الحديثة التي وصلتهم، كما أني وجدت روح ١٩٦٧م قد بدأت في بعض القادة، وكنت أحب ألا يحدث هذا .. والعامـل الثالث أن القائد العـام لم يكن لديه احتياطي يسـتخدمه وهذا خطير ..وقبولي وقـف إطلاق النيران هذه المرة يختلف عما حدث عام ١٩٦٧م فقواتنا عشـر فرق شرق وغرب وإن شاء الله سنستعوض الدبابات، وبعد كسر حائط الخوف والجيش الذي لا يقهر وبهـذه الروح العالية أمكننا أن نحقق الكثير ....

ويجب أن تتحركوا، خذوا أرضا، تحركوا، وبعد فصل القوات ندخل مؤتمر السلام، ومفروض أن تظل القضية حية فقرار أكتوبر ومانفذته القوات المسلحة كان روعة ونفذ ضد إرادة الكبار روسيا وأمريكا وكانوا يقولون لي اوعى تحارب»

على أي حال، توقف القتال تماما يوم ١٢٨اكتوبر١٩٧٣م، وبدأت مرحلة جديـــدة تصدرت فيها المفاوضات السياســـية لحل الصراع العربي الإســـرائيلي تمثلت في مجموعة من قرارات الأمم المتحدة مصحوبة بمعاهدات واتفاقيات ومؤتمرات، إلا أن المشكلة الأساسية التي تؤرق أذهان كل عربي وهي مشـــكلة فلسطين مازالت تبحث لها عن حل.

تم بحمد الله وفضله